نداء الى المثقفين العرب
من أجل إنشاء جبهة ثقافية ديمقراطية

سعدي يوسف

يدرك المثقفون العرب الوطنيون ، على اختلاف اتجاهاتهم وايديولوجياتهم مدى الخطر الذي يتهدد الثقافة الوطنية والحرية : حرية الفكر والابداع والبحث العلمي ، هذا الخطر المندفع في انقضاضة الذي يتوج بنادق المحتلين من امريكيين واسرائيليين ، كما يتوج بنادق الرجعية العربية التي اتقنت الهجوم على الديمقراطية منذ عقود .

ان قضية الديمقراطية تحضر الان — خصوصا الان — كل القضايا التي نذهب من اجلها الى خنادق الحياة ، المعركة من اجل الديمقراطية تعني — تواً — معركة التحرر الوطني ، ومعركة التحرر الاجتماعي ، وتعني تواً — القتال من اجل حرية الابداع ، ابداع الكلمة الحرة والفن الحر والفكر الحر . والحب الحر ، والفرح الحر ، والحزن الحر ايضا .

نحن الان في صورة ما بعد اجتياح في صورة الاجتياح المستمر لكل مكاسب حركة التحرير العربي منذ الحرب العالمية الثانية حتى اوائل السبعينات والخطر لم يعد يتهدد الثقافة الوطنية اللبنانية وحدها او الثقافة الفلسطينية وحدها بل هو يتهدد الان مجمل المنجز العربي الثقافي ، هذا الامر كفيل باضافة عنصر جديد خطير الى عناصر عملية التفكيك ، تفكيك الامة ، والوعي ظل يوحدها ، وهنا يتضافر المسعى الاستعماري والمسعى الرجعي فالانظمة تمارس — بصورة يومية مألوفة — عداءها وقمعها لكل نبض حي في الثقافة العربية .

ويغدو من "فلكلور" الكلام تفصيل ما فعلته وتفعله هذه الانظمة ، وما يتعرض له المثقفون العرب ، في ظلها الثقيل من عسف وعنت وشبه ابادة جسدية وروحية ، هذه الانظمة المرتبطة في الذهن بكل ما هو معاد للثقافة والحرية وحقوق الانسان ، لم تعد قادرة — الا بالشراء — على اجتذاب المثقفين ، حتى هؤلاء "يحترقون" ، سريعا كالهشيم في النار ، فلا يعود لهم ذلك الاثر المرجو .

لهذا لجأت الاجهزة السرية التابعة للانظمة المعنية الى تأسيس "مركز ابحاث" بغية خلق "المثقف المحايد" الذي يعمل في خدمة المؤسسة الرجعية "بنظافة" زائفة ، مفرغة الساحة من كوادر قيمة ، هذا كله لم يكف فعكفت تلك الاجهزة السرية على خطط جديدة اخذت تتضح بدايتها في باريس ولندن وبعض المعاهد والمراكز الامريكية ، فهذه الاجهزة تدفع الى الواجهة بعدد من المثقفين "اليساريين" او الذين كانوا مرتبطين بحركات ثورية ثم نكصوا ، تدفعهم الى الواجهة وتمنحهم "حرية" اصدار بيانات ضد قمع غامض ، مجرد من الزمان والمكان بيانات تساوي بين الضحية والجلاد ، وتدعو الى تجميع "ليبرالي" في الظاهر ، في محاولة لاخلاء الساحة الثقافية من بقايا "المتمردين" الذين لم يدخلوا بعد "بيت الطاعة" .

ومع القمع المنهجي ، المتعدد الاشكال ، للثقافة الوطنية ، وممثلي الثقافة الوطنية ، تنتظم منهجية تجهيل الناس ، فحواجز الكتاب صارت من التعداد والتنوع بحيث لا يتخطاها حتى امهر الحواة ، بل لقد غدا الكتاب السلعة الوحيدة التي تحرم مباشرة حين يدخل المسافر بلدا ، هكذا تغلق حدود البلد بالشمع الاسود ويتعرض الناس داخل هذه الحدود الى عملية تجهيل واسعة تريد ان تبقيهم خارج الوعي ، خارج التاريخ ، ان الحاكم المنتهي بمنأى عن العملية التاريخية يريد ان يظل خالد الحكم على اناس خالدي المحكومية .

والمثقف العربي بين خيارين : اما ان يرضى بشظف العيش والابتعاد عن دائرة النشاط الثقافي المتاح ، او ان يبيع ضميره للاعلام الرجعي وأذرع اخطبوطه الكثيرة .

وما دامت الحال هكذا ، فان من الاستهانة ان نترك الامور على هذه الصورة ، دون ان تبذل جهدا منظما نضاليا للحيلولة دون الانتصار النهائي للخطة الرجعية في الميدان الثقافي التي هي جزء من الخطة الرجعية في الميدان العام . كان بامكان المثقفين ان يقولوا اشياء كثيرة او يفعلوا شيئا ، لو لم يتشتتوا هذا التشتت ، ولا سبيل الى معالجة الامر الا بخطوة عملية اساسية نضع البديل السليم لتشتت المثقفين .

كانت بيروت المركز الحقيقي للحركة الثقافية العربية ، الاكثر حرية ، والاقل تكبيلا بالقيود ، اما الان وقد افتقد المركز فان الحاجة الى مثله تبرز بالحاح واضح وضرورى "اذ ليس من المعقول ان تترك حركة ثقافية واسعة ، تمثل ضمير الامة ، وتوحد مقاومتها ، وتدرأ عنها انهيار القيم وهجمة العدو ليس من المعقول ان نترك هكذا ، ضحية سهلة ، في مهب الريح .

كل ما تقدم تم تداوله في نقاشات ولقاءات لعدد من الادباء العرب ذوى الصوت المسموع نخبويا وجماهيريا كما تناولته الصحافة في بيروت ودمشق وعدن وما زال يحظى باهتمام ومتابعة .

وقد اسفرت النقاشات واللقاءات عن ضرورة العمل على تكوين "الجبهة الثقافية الديمقراطية" .

ان المثقفين الوطنيين والديمقراطيين والتقدميين ، مهتمون بولادة الجبهة ، هذا ما بدا واضحا في اللقاءات . نحن لسنا بحاجة الى ان نضيف ركاما الى ركام ، نحن لا نريد ان نلحق هذه الجبهة بالعديد من الصيغ التي ولدت ميتة ، وكانت ادوات تفريق لا تجميع ، وبنى ذات اساس واه ، وعلائق مشوشة مشوهة ، نحن نريد ان تبنى بما تبقى من طاقاتنا الحية ، هذه الجبهة المنتظرة ، ونحن لا نملك الا طاقة واحدة ، طاقة النضال ، وهي القادرة على صنع المعجزات ، مع ان ما نريده ليس معجزة بأي حال .

اى نشاط نقوم به الجبهة ، وما افاقه ؟

اظهرت المداولات والاتصالات ان نشاط الجبهة سيعطي الجانب الثقافي في مساحة واسعة ، ذات اشكال عمل متنوعة بدءا من الدفاع عن حرية الفكر والحريات العامة (منظمة عفو عربية) حتى اصدار المطبوعات واقامة الانشطة والمشاريع .

ان الجبهة الثقافية الديمقراطية قادرة على القيام بدور فعال في المسعى الوطني العام الذي يوحد الجماهير العربية حول اهداف واضحة وقد تكون هذه الجبهة اقل حاجة الى التلميح ، واكثر قدرة على التصريح ، لكن الجبهة ليست حزبا سياسيا او واجهة حزب ، انها جبهة مستقلة ، مسئوليتها امام ضمائر المثقفين انفسهم . لا امام حزب معين ، مع انها ستضم بالتأكيد — افرادا من اتحادات وجماعات ذات علاقة بهذا الحزب او ذاك .

ان الاساس الديمقراطية لتكوين الجبهة ، وهو اساس تنبني المحافظة عليه ، ذو قدرة كامنة مستمرة على ابداع منافذ متجددة لانشطة الجبهة وهو الذي سيظل يضمن حيويتها والتفافها بالناس ، وتناول المشكلات الاكثر الحاحا .

الجوهر الديمقراطي لبنية الجبهة وعملها هو الذي سيمونها من التشوش ، ويمنح انشطتها ومواقفها المصداقية المطلوبة .

من هنا جرى التأكيد في المداولات واللقاءات على ضرورة ان تكون البنية التنظيمية للجبهة منفتحة ، غير تقليدية ، وان يكون الانضمام اليها طوعيا والالتزام ازاءها التزام فكر لا تنظيم فالجبهة ليست اتحادا انها تجمع ديمقراطي حي منفتح مفتوح .

امل في ان نستطيع الاستمرار في بحث تأسيس "الجبهة الثقافية الديمقراطية" سواء عن طريق المراسلة او اللقاء الممكن .

أغنية الساحة الصغيرة

شعر :
فيديركو غارسيا لوركا

ترجمة :
مصطفى عبود

في الليل الهادئ
يغني الاطفال :
يا جدول ماء صاف ، يا نبعا ساكن !
الاطفال : ماذا تحمل في قلبك
السماوى ، المبتهج ؟
انا قرع نواقيس ضاعت في
الضباب .
الاطفال : دعنا في الساحة الصغيرة
ننشد .
يا جدول ماء صاف ، يا نبعا ساكن !
ماذا تحمل في كفيك النضرتين ؟
انا : وردة دم وزنبقة بيضاء .
الاطفال : اغمسها في ماء نشيد
الاجداد ،
يا جدول ماء صاف ، يا نبعا ساكن !
بماذا يحس فمك القرمزي العطشان ؟
انا طعم عظام عمودى الفقرى
الهائل !
الاطفال : اشرب ماء نشيد الاجداد
الهادئ .
يا جدول ماء صاف ، يانبعا ساكن !
عن الساحة الصغيرة
لماذا تذهب بعيدا جدا ؟
كي افتش عن سحرة واميرات
الاطفال : من ذلك على درب
الشعراء ؟
انا جدول نشيد الاجداد وينبوعه
الاطفال : اتذهب بعيدا ، بعيدا
جدا
عن البحر وعن اليابسة ؟
انا : قلبي المصنوع من حرير
ممتلئ بالنور ، فيه نواقيس ضائعة
وزنابق ونحل ، وساذهب بعيدا ،
بعيدا جدا . خلف التلال وخلف
البحر قرب النجمات واطلب من
المسيح يسوع ان يعيد لي ، روح
الطفل السالفة في ، الممتلئة
بالاساطير وبالقبعة ذات الريش
وبالسيف الخشبي .
الاطفال : دعنا في الساحة
الصغيرة ، ننشد .
يا جدول ماء صاف ، يا نبعا ساكن !
لحاظ عيون واسعة من سعف جاف ،
جرحتها الريح ، تندب اوراقا
ميتة .

إضاءة

والان ، عندما نلقي النظر الى الوراء على الفترة التاريخية التي انقضت تماما والتي وضحت تماما صلتها بالفترات التالية لها ، يبدو واضحا جدا ان البلاشفة ما كانوا استطاعوا ان يحفظوا (ولا اقول ان يعززوا ويطوروا ويقووا) النواة الصلبة لحزب البروليتاريا الثورى في سنوات ١٩٠٨ — ١٩١٤ ، لو انهم لم يذودوا في نضال حامي الوطيس عن ضرورة الجمع بين الاشكال العلنية للنضال والاشكال غير العلنية ، وعن ضرورة الاشتراك في البرلمان الرجعي للغاية وفي جملة من المؤسسات الاخرى التي استنت لها قوانين رجعية (كصناديق التأمين وما اليها .

— لينين —